

وفى هذا الموطن يكمن تراكب الخدع، ولجوهر هذه الأسباب تصادف في نهاية الجزء الثالث قوله : «وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حفظه بالاحتيايل له، فمن ذلك أن يخرج من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرج من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم». (٣٦٦) .

\* \* \*

ولئن تحدّد مناط البحث بكتاب «البيان والتبيين» فإنّ التعرّيج على نفس الظاهرة في كتاب الحيوان لكفيل بأن يعمّق القناعة النقدية التي تصدر عنها، ويكفي أن نتعقّب بعض مفاصل الكتاب ممّا جاء حديثا بلغة الأدب عن منهج الأدب، فيتكشف لنا أنّ المراوحة بين غرض وآخر، ضمن تعاقب الهزل على الجدّ، إنّما هي اقتضاء لضرورة تعذّر على المصنّف الإفلات من ناموسها وهو يتعامل مع مادّة تراكمت وتلاحقت يجري وراءها فتطارده فكره، وتشدّد عن قبضته، فيتلاشى المنهج المراد، ويحلّ محله توارده يصطنع له لبوس المنهج وما هو بمنهج .

فقد يعنّ لصاحب الحيوان أن يصوّر المنهج المزعوم وهو في هدوء من أمره حيال ما تجمّع عليه : «إنّي قد عزمت - والله الموفّق - أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادير من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل». (٣-٧) ولكنه قد يجنح إلى التصريح بأن التراكم لديه سينفق في الكتاب إنفاقا جزافا،